المحاضرة الأولى: جذور وخلفيات الأدب الجزائري

أولا: الواقع الأدبي الجزائري قبل الاحتلال الفرنسي

إن الحديث عن الأدب الجزائري لا ينبغي أن ينطلق من أقرب فترة، أي من فترة النهضة العربية الحديثة، أو من فترة الحركة الاستعمارية بشكل عام، وإنما يكون من الإنصاف لهذا الأدب، أن نؤرخ له منذ عصوره الغابرة، شأنه شأن التأرخة للأدب في المشرق العربي.

ولا شك أن الباحث في جذور هذا الأدب سيقف على نتاج متنوع، ويجمع بين التركة الأدبية والتركة اللغوية، في مسيرة متأنية، حسب البيئة التي احتضنت هذا الأدب وحسب الذهنية المنتجة.

لا نبالغ إذا قلنا إننا لم نكن أقل شأنا من المشارقة في فضاء الأدب، وأن موروثنا الأدبي في الجزائر ظل متواريا عن الأنظار لفترات، والعلّة في ذلك تكمن في التهميش من جهة، وفي قلة المصادر، إن لم أقل غيابها، من جهة أخرى.

لقد وُجد الأدب العربي في الجزائر منذ القديم، كما وُجدت الذات الجزائرية على هذه الأرض، ورافق ما تمخض عنه التاريخ من إيجابيات وسلبيات، فاختلط الأصيل بالوافد، وهو الإشكال الذي يواجه الباحث في الأدب الجزائري القديم، فكثيرا ما قطن الجزائر أدباء وعلماء من بلدان مختلفة، كالمغرب وتونس والأندلس، واستوطنوها طوال حياتهم، وانصهروا في مناخها، وأثروا وتأثروا بحياتها العلمية والأدبية، فكان النتاج متشابكا متداخلا، يتطلب كثيرا من الدقة للفصل بين الأصيل والوافد.

والحديث عن المرجعية الثقافية والفكرية للأدب الجزائري لا يمكن تجاهلها، حتى وإن زهد الباحثون في الاهتمام بها.

وسأحاول تتبع محطات هذا الأدب حتى يتسنى الانطلاق من قاعدة صلبة، تجلو هوية الأدب العربي في الجزائر.

1 – الامتداد الحضاري لبلاد الجزائر

استقبلت الجزائر العديد من الحضارات ما جعلها ترث تاريخا غنيا، فقد أثرت أفريقيا والبحر المتوسط وأوروبا والمشرق في كتابة هذا التاريخ، حيث تعد أكبر متحف مفتوح في العالم. فقد عرفت تواجد العديد من الحضارات بها على غرار الحضارة الفنيقية والنوميدية والرومانية والبيزنطية وغيرها وما خلفه هذا التواجد من مظاهر الحضارة المادي واللامادي والذي سينعكس بشكل طبيعي على الأفراد والمجتمع الجزائري ومن ثمة على أنماط التعبير لديهم.

ولقد كان لهذا الزخم التاريخي الكبير دور هام في تشكل الشخصية الجزائرية عبر العصور، ومكن من تكوين أرث ثقافي كبير كان له حضوره الخاص في المنتج الإبداعي في الجزائر

2 – الفتح الإسلامي للجزائر :

فقد كان لمجيء الإسلام إلى بلاد المغرب القديم الأثر البارز في تبدل طبائع الناس وثقافتهم، بالإضافة إلى توافد العلماء من مختلف مناطق المشرق واختلاطهم بأهل الجزائر مما نجم عنه تولد فكرة الانتماء الإسلامي والتشبع بقيمه وغدا تعلم اللغة العربية والانفتاح على علومها وآدابها ديدن السكان الأصليين ثم اختلطت بينهم وبين العرب الفاتحين الأنساب وتوطدت العلاقات.

ومع ان الأوضاع من الناحية السياسية لم تعرف استقرارا ألا أن الملاحظ في تلك الفترة ازدهار علوم الدين كالفقه وأصوله وعلوم اللغة كالنحو وقراضة الشعر والخطب والرسائل الأدبية ومع مرور الحقب والأزمنة تمكن الأدباء الجزائريون من بلوغ مراتب عالية ضاهو بها أقرانهم في المشرق العربي وسنعرض لأمثلة مختلقة من فترات مختلفة في العصر الاسلامي بالجزائر.

الدولة الرستمية: ظهر أول جيل من الأدباء الجزائريين على عهد الدولة الرستمية وقد شهدت انتشار المعرفة بها وازدهارها فكتبو في مختلف صنوف النثر والشعر كالرسائل والخطب والمصنفات الشعرية من أمثلته ما ترك الإمام أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن، من خطب ورسائل ذات طابع سياسي ديني، بالإضافة إلى مقتطفات شعرية كقوله مثلا:

العلم أبقى لأهل العـلم آثـارا = = يريك أشخاصهم روحا وأبكـــارا

حتى وإن مات ذو علم وذو ورع = = ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا

و النابغة بالشعر بكر بن حمادونابغة في الشعر الذي خلف ديوانا شعريا بعنوان "الدر الوقاد"، وتزعم الحركة الزهدية في الأدب المغاربي، كما كان يتزعمها أبو العتاهية في المشرق .ومن شعره في الزهديات:

لقد جمحت نفسي فصدت وأعرضت = = وقد مرقت نفسي، فطال مروقها

فيا أسفـي من جنح ليـل يقودها = = وضوء نهار لا يـزال يسوقها

فترة الأغالبة : يجدر التسجيل أن الفقه طغى على الفنون الأخرى بحيث نجد الفقهاء أكثر عددا من الأدباء، وهؤلاء أنفسهم لهم إلمام كبير بالفقه، لأن الحالة الاجتماعية كانت تدعو إلى تعاطي العلوم الدينية أكثر من سواه ومن الأسماء البارزة على عهد الأغالبة محمد بن حسين الطبني، وأحمد وعلي وهما إخوة. كان الأول منهما "أديبا بليغا وشاعرا مُقَدَّما، قصد الديار الأندلسية ودخل قرطبة في عهد الناصر وسكنها". ومما قاله في وصف ربوع خلت من أحبابه:

وأصبحت بعد أشواق ربوعهم مثل السطور إذا ما رثت الكتب

فقرا يبابا، كأن لم تغن أهلـة تبكي على حتفها غربانها النعب

كأن باقي مغانيها وأرسمهـا منابر نصبت والطير تَخْطُب

الفترة الفاطمية : نشط الفاطميون واتخذوا من "المسيلة" عاصمة لهم، فقصدها أرباب الثقافة من كل فوج وصوب. والفضل في ذلك يرجع إلى مؤسسها ووواليها علي بن حمدون يمثل هذه الفترة خير تمثيل الشاعر الكبير بن هانئ الأندلسي الذي هاجر إلى المغرب وبالذات إلى منطقة الزاب. ومن شعره في الأمير جعفر بن علي:

خليلي، ما الأيام إلا بجعفر وما الناس إلا جعفر، دام جعفر!

الفترة الصنهاجية : قد ازدهر الأدب في فترة الحماديين من حيث الكم، وأما من جهة الكيف فظل يتسم بسمات المدرسة الشرقية، وإن كان قد ضاع نتاج هذه الفترة بسبب الاضطرابات، إلا أن هناك رجالا جزائريين عاشوا في تونس وصل إلينا شيء من آثارهم الأدبية ومن هؤلاء:

ابن رشيق القيرواني وقد خلف ما يربو على ثلاثين كتابا، منها "الشذوذ في اللغة"، و"العمدة"، وهذا الاخير يعد أبرزها باعتباره واحدا من امهات الكتب النقدية في الأدب العربي.

ومن شعره في رثاء القيروان:

أمست وقد لعب الزمان بأهلها وتقطعت بهم عرى الأقـران

فتفرقوا أيدي سبأ وتشتتـوا بعد اجتماعهم على الأوطان

ومن امثلة هذا العصر عبد الكريم النهشلي صاحب كتاب "الممتع" طرح فيه قضايا هامة كمسألة القديم والجديد، ومسألة اللفظ والمعنى، والسرقات الأدبية، والطبع والصنعة.

مع القرن السابع الهجري، بدأ الأندلسيون في الهجرة إلى الجزائر، فكثر النتاج الأدبي، وازدهر فن التوشيح مع الشاعرين الكبيرين الأريسي وابن فكون.واشتهر شمس الدين محمد بن عفيف التلمساني المعروف بالشاب الظريف الذي يقول:

قمر يجلو دجى الغلس بهر الأبصار مذ ظهرا

فترة الجزائر العثمانية كان الأتراك رجال حرب، وليس رجال أدب، لذلك لم يهتموا برجال الثقافة .وسرى الضعف في مفاصل الأدب على عهدهم، فغلب عليهم طابع الجفاف. ولم يظهر أدباء حقيقيون إلا في القرن الحادي عشر، ومنهم أحمد المقري الذي ولد في تلمسان سنة 986هـ، وخلّف ثروة أدبية منها "أزهار الرياض" و"نفح الطيب."

ومن جميل شعره:

لكن قدرة مثلي غير خافية والنمل يعذر في القدر الذي حملا

ثانيا: الواقع الشعري الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي

بعد احتلال فرنسا للجزائر عام 1830 ميز الجمود الثقافي وطرق التعليم التقليدية خذه الفترة وسبب هذا الجمود ضعف الشعر وارتكازه على الأساليب التقليدية الموروثة عن عصر الانحطاط واندثار القصائد الأولى والمحاولات الأولى للشعراء الجزائريين التي لم يبق منها إلا القصائد التي تحمل قدرا من ثقافة الشعر التقليدية المحتكرة من طرف رجال الزوايا والجماعات الصوفية ، فالمشرفون على هذا التعليم كان هدفهم هو الحفاظ على كل ما هو قديم ، وإيصاله إلى الأجيال الأخرى دون تعديل أو تغيير، فأثر سلبا على الأدب وتطوره وجمد بذلك الفكر.

فكان الشعر يدور في فلك بعض الأغراض الدينية مثل المدح، أي مدح الرسول وآل البيت، بينما كانوا ينظرون إلى مدح الأشخاص على أنه نفاق وكذب على الشعراء الانصراف عنه مثله مثل الغزل كان يعتبر خروجا عن الآداب العامة .

فالشعر لم ينظر إليه على أنه عمل فني وإبداعي، بل نظروا إليه بعين الوظيفة التي يجب أن يلعبها والتي لخصوها في العملية الإصلاحية أي أن دور الشاعر في المجتمع يتجسد في التوجيه والتوعية قصد مواجهة الثقافة الغربية . إن النهج التقليدي المتبع في الشعر الجزائري وعلى الرغم من إعاقته للتقدم الشعري إلا أنه تمكن من المحافظة على اللغة العربية .

نهضة الشعر الجزائري :

عرفت نهضتها مع بداية القرن الماضي باحتكاك الشعراء الجزائريين بالثقافة المشرقية، من جهة، وإدراكهم لوظيفة الشعر من جهة أخرى، فحاول الشعراء التعرض إلى أمراض المجتمع لمعايشتهم لها وتأثرهم بها، وطالبوا بالإصلاح نظرا للحالة السيئة التي كان عليها مجتمعهم .

بعدما كان الشعر منحصرا في الزوايا، أصبح فيما بعد له رؤيته الخاصة لمختلف نواحي الحياة، وتأسست نظرتهم الخاصة للدين إذ أنهم يرونه دين عمل لا دين جمود وركود .

إن تطور الفكر الإصلاحي لم يصطحبه تطور في بنية شكل القصيدة، بحيث أنهم لم يتمكنوا من الانفلات من القيود التي وضعت للقصيدة العربية، فالدعوة إلى التجديد في الجانب الفني لقصيدة يعتبر من المستحيلات في تلك الفترة الزمنية نظرا لسيطرة الاتجاه المحافظ على مختلف الميادين الثقافية (الجمعيات، النوادي، الصحف، المدارس ...) ونظرا للتأثر بشعراء الإحياء في المشرق كحافظ وشوقي . فالاتجاه كان كلاسيكيا وفق رغبة الحركة الإصلاحية و

ويعد **الأمير عبد القادر** رائدا في الحركة الأدبية في الجزائر إذ يمكن أن نقول أنه يمثل مدرسة الإحياء في الجزائر على نحو ما قام به رائد الحركة الثقافية في المشرق محمود سامي البارودي 1838 – 1904 وكلاهما استمدا أدبهما من التراث الشعري العربي القديم ويتشابهان في كونهما رجلا قلم وسيف، شاركا في المعارك ونفيا بعدها إلى أراضي الغربة .

ألف قصائد تدخل في إطار شعر المناسبات، وفي الوصف، وأشعارا في التصوف إلى جانب قصائد في الفخر والغزل يقول مثلا في افتخاره بنسبه للرسول:

ورثنا سؤددا للعرب يبقى وما تبقى السماء ولا الجبال

فبالجد القديم علت قريش ومنّا فوق ذا طابت فعال

لهم لسن العلوم لها احتجاج وبيض ما يثلمها النزال

سلوا تخبركم عنا فرنسا ويصدق إن حكت منها المقال